يا أحمد بك، وقعت في الشرك:

دبّر المماليك الهجوم على القاهرة ليستولوا عنوة على زمام الحكم، وبادروا إلى إنفاذه في شهر أغسطس سنة ١٨٠٥، ولم يمض شهران على تولية محمد علي باشا، وربما كان قصدهم من هذا التعجيل أن يضربوا ضربتهم، قبل رحيل قبطان باشا عن مصر؛ ليشهد بعينه قوة المماليك وشدة بأسهم، فينحاز إلى جانبهم ويولي واحدًا من زعمائهم حكم مصر، وقد اختاروا لهجومهم يوم الاحتفال بوفاء النيل، إذ يكون الباشا والجمع الحاشد من الجنود والأهالي في مصر القديمة بعيدًا عن المدينة، لكن اعترض محمد بك الألفي على ما قرره باقي بكوات المماليك، وحذرهم من تنفيذ الهجوم، ورفض الاشتراك معهم بقواته، فهو أكثرهم دراية بما يمكن أن يفعله محمد علي من خدع، ولكنهم أصروا على تنفيذ الهجوم بعد التنسيق مع بعض العسكر داخل القاهرة.

ولكن الباشا دائمًا لديه مصادره للحصول على المعلومات والمؤامرات، أليس هو نفسه مُتآمر. إن هؤلاء المساكين لا يعرفون مع من يتعاملون! إن لاظ نفسه لا يعرف جميع مصادر معلومات الباشا الذي استطاع أن يخترق صفوفهم جميعا، فلديه من يخبره بما يتحدث به العلماء والمشايخ والتجار

والمماليك والجنود الأرناؤوط، بل ويعرف ما يحدث داخل القلعة التي لم يصعد إليها بعد، بل إن العسكر الذين نسقوا الهجوم مع المماليك كانوا ينفذون تعليمات الباشا ليستدرج المماليك إلى حتفهم. ويستدعي الباشا ساعده الأيمن ويطلب منه فتح السد ليلًا، ليتدفق الماء في الخليج على عادة كل سنة، ولكن هذه المرة قبل يوم الاحتفال، فيقول لاظ متعجبًا:

– أمرك يا أفندينا، سأذهب على الفور، ولكني لا أخفي على أفندينا كم كانت ستكون فرحتي غدا بأول احتفال بكسر السد في عهدكم المبارك يا عزيز مصر.

– أعرف يا لاظ بك، ولكن البكوات سيقتحمون القاهرة غدًا، وستتحول سعادتك إلى كآبة بلا شك إذا نجحوا في مخططهم في أثناء احتفالنا..

– فهمت يا أفندينا، وسوف أعد لهم ما يستحقونه من استقبال يليق بهم.

ولنترك أبطال قصتنا ونتوجه إلى حارة الصناديقية بالأزهر، لنطَّلع على ما كتبه الجبرتي بأسلوبه الماتع عن هجوم المماليك في ذلك اليوم على القاهرة، **حيث كتب ما يلي**:

وأشيع في ذلك اليوم وصول فرقة من الأمراء المصريين من خلف الجبل، وبات الناس مستعدين للفرجة على موسم الخليج على العادة، فأمر

الباشا بإخراج الخيام والنظام إلى ناحية الجسر وعمل الحراقة، ثم أمر بكسر السد ليلًا فما طلع النهار إلا والماء يجري في الخليج، ولم يذهب الباشا ولا القاضي ولا أحد من الناس، ولم يشعروا بذلك، وكان قد بلغه ورود الأمراء المماليك، فتأخر عن الخروج وهم ظنوا خروجه مع العسكر إلى خارج المدينة، وفي وقت الشروق من ذلك اليوم، وصل طائفة من الأمراء إلى ناحية المذبح وكسروا بوابة الحسينية، ودخلوا من باب الفتوح في كبكبة عظيمة وخلفهم نقاقير كثيرة وجمال وأحمال، فشقوا من بين القصرين حتى وصلوا إلى الأشرفية، وشخص لهم الناس وضجوا بالسلام عليهم وبقولهم:

- نهار مبارك وسعيد
- حمدا لله على السلامة

وشخص الناس وبهتوا وخمنوا التخامين، فلما وصلوا عطفة الخراطين افترقوا فرقتين، فدخل عثمان بك وحسن وشاهين بك المرادي وأحمد كاشف سليم وعباس بك وغيرهم كشاف، وأجناد ومماليك وعبيد كثيرة نحو الألف، وخلف كل طائفة نقاقير وهجن، وبأيديهم البنادق والسيوف والأسلحة، ومروا بالجامع الأزهر وذهبوا إلى بيت السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي، فامتنع السيد عمر من مقابلتهم، فدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقاوي، وحضر عندهم السيد عمر، فقال لهم السيد عمر:

- ماذا تريدون؟ ولِمَ حضرتم في هذا التوقيت وهذا المكان؟

فقال شاهين بك:

- حضرنا نطلب منكم النجدة وقيام الرعية..

فقال السيد عمر:

- هذا لا يصح، ولم يكن بيننا وبينكم موعد ولا استعداد، والأولى ذهابكم وإلا أحاطت بنا وبكم العساكر وقتلونا معكم!

فعند ذلك ركبوا وخرجوا من باب البرقية، وبعد خروجهم حضر في أثرهم حسن بك الأرنؤدي، في عدة وافرة من العسكر وهم مشاة، وخرج خلفهم ليطاردهم طبقًا لما وصل له من تعليمات، فوجدهم خرجوا إلى الخلاء فرجع على أثره، وأما الفرقة الأخرى، فإنهم وصلوا إلى باب زويلة، وتقدموا قليلًا إلى جهة الدرب الأحمر فضرب عليهم العسكر الساكنون هناك بالرصاص فرجعوا القهقرى إلى داخل باب زويلة، وأرادوا الدخول إلى جامع المؤيد والكرنكة بتلك الناحية، فضرب عليهم المغاربة والمرابطون هناك، فأصيب منهم أشخاص وقوي جأش العسكر الذين في جهة الدرب الأحمر لما سمعوا ضرب الرصاص، وتنبه غيرهم واجتمعوا لمعاونتهم، وصُرِع منهم ثلاثة أشخاص وقعوا على الأرض، فلما عاينوا ذلك ولوا الأدبار، وتبعهم العسكر يضربون في أقفيتهم، فلم يزالوا في سيرهم إلى النحاسين، وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين، وكذلك بوابة الخراطين وبوابة البندقانيين، وذهبوا إلى جهة باب النصر لظنهم أنهم لا يمكنهم الخروج من

باب الفتوح الذي دخلوا منه، فلما وصلوا إلى باب النصر وجدوه مغلقًا، وامتنع المرابطون عن فتحه فعادوا على أثرهم وذهبوا إلى باب الفتوح، ثم رجعوا على أثرهم إلى جهة بين القصرين، فصادفوا أدبار الجماعة والعسكر في أقفيتهم بالرصاص، فاختبل القوم وسقط في أيديهم، وعلموا أنهم قد أحيط بهم، فترجلوا عن خيولهم ودخل منهم جماعة كثيرة جامع البرقوقية، وذهب منهم طائفة كبيرة بخيولهم نحو المائة إلى جهة باب النصر، فوجدوه مغلقًا فترجلوا أيضًا عن خيولهم ودخلوا العطوف، وتخطوا السور إلى الخلاء، وتفرق منهم جماعة اختفوا في الجهات، وبعض الوكائل والبيوت، ولما انحصر الذين دخلوا جامع البرقوقية وأغلقوا على أنفسهم الباب حاصرهم العسكر، وأحرقوا الباب وتسور أيضًا عليهم جماعة من العطفة التي بظاهر البرقوقية وقبضوا عليهم، وعروهم من ثيابهم وأخذوا ما معهم من الذهب والنقود والأسلحة المثمنة، وذبحوا منهم نحو الخمسين مثل الأغنام، وسحبوا نحو ذلك العدد بالحياة وهم عرايا مكشوفو الرءوس حفاة الأقدام موثوقو الأيدي، يضربونهم ويصفعونهم على أقفيتهم ووجوههم ويسبونهم ويشتمونهم ويسحبونهم على وجوههم حتى ذهبوا بهم وبرءوس القتلى إلى بيت الباشا بالأزبكية فامتلأ فرحًا.

وإذا تأملنا ما كتبه الجبرتي سندرك مدى براعة الخطة، وما تم إعداده لاستقبال هجوم المماليك على القاهرة، حيث سمحوا لهم بالدخول ثم أغلقوا جميع الأبواب فوقعوا في المصيدة، وهو ما ينم عن حسن تدبير محمد علي ورجاله، وسنشفق على هؤلاء المساكين الذين اعتقدوا أنهم يستطيعون مباغتته بهجوم محكم، فإذا بهم يساقون إليه في هذا الوضع المهين، ولما مثل بين يديه أحمد بك، تابع البرديسي ومن معه، قال لأحمد بك:

- يا أحمد بك وقعت في الشرك!

فطلب ماء، فحلوا وثاقه وأتوا بماء يشرب، فنظر لمن حوله، وخطف سيفًا من وسط بعض الواقفين، وهاج فيهم وأراد قتل محمد علي باشا، وقتل أنفارًا، فتكاثروا عليه وقتلوه، ووضعوا باقي الجماعة في جنازير، وفي أرجلهم القيود وربطوهم بالحوش، وهم على الحالة التي حضروا فيها من العري والحقارة والذلة.

وهكذا فشل هجوم المماليك على القاهرة فشلا ذريعًا، وأيقن لاظ أنه يعمل مع ثعلب ماكر، يصعب على المماليك أن يظفروا به، وعندما وصلت أخبار ما حدث للقنصل الفرنسي فيما بعد سعد كثيرًا، أما الإنجليز فأيقنوا أن التغلب على هذا الداهية لابد أن يحدث بالضغط على الباب العالي نفسه، فعملوا على تحقيق ذلك، أما قبطان باشا الرابض بقواته بالإسكندرية، فقد كان يترقب ما سيفعله المماليك مع محمد علي باشا، فلما وصلته هذه

المعلومات، تأكد أن المماليك ليسوا على المستوى المطلوب ليتمكنوا من تحقيق أهدافهم، وغادر الإسكندرية متوجهًا إلى الأستانة مصطحبًا معه خورشيد باشا، وقال قبطان باشا عند رحيله لمن حوله، ما يؤكد بعد نظره وفراسته وتحليله العميق لما يحدث:

- إني لأترك في مصر رجلًا ستجده الدولة يومًا من أعظم خصومها شأنًا وأكبرهم خطرًا، ولم يُوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا في دهائه وحزمه ومضاء عزيمته.

أما محمد علي باشا فقد انتهز فرصة هذه الهزيمة التي حلت بالمماليك، واستولى على الجيزة وكانت لم تزل إلى ذلك الحين في أيديهم.

ونعود إلى عقل لاظ بك المسكين الذي لا يتوقف عن التفكير، لمحاولة معرفة ولو بعض من أفكار سيده، حيث ينتبه فجأة ويسأل نفسه: هل من المعقول أن يكون الباشا هو الذي دبر هذا الهجوم، وشجع المماليك عليه بواسطة العسكر، ليقعوا في الفخ الذي نصبه لهم؟ ثم يردد بينه وبين نفسه بصوت مسموع:

- ربما، ربما..